الانشاء

لكاتب فرنساوي طائر الصيت

صاحب البحث الحاضر هو الكونت دي بوفون واسمهُ جورج لويس لكلير من اكبر ائمة الانشاء وقادة الافكار في القرن الثامن عشر . ولد في مدينة مونبار من اعمال فرنسا سنة ١٧٠٧ ودخل سنة ١٧٥٣ عضواً في ندوة البيان واللغة بباريس وهي المعروفة باسم الاكاديمية الفرنساوية وتوفي سنة ١٧٨٨ . ولما دخل الندوة القى هذا الخطبة النفيسة في موضوع الانشاء وقد وجدتها متضمنة من الملاحظات الدقيقة وقوانين حسن الانشاء العامة ما يصدق على كل لغة لا اللغة الفرنساوية وحدها فاحببت نقلها الى قراء اللغة العربية بشيء من التصرف والاختصار يوافق قارئ الفرع ولا يجني على اغراض منشىء الاصل

قال الخطيب بعد مقدمة وجيزة اثنى فيها على زملائهِ اعضاء الندوة مجاملةً وتأدباً

لم يخلُ عصر من اناس تمكنوا بقوة الكلام ان يقودوا اناساً آخرين . على ان صناعة الكلام كتابةً وخطابةً لم تُتقن وتستوفِ حقها الاَّ في اعصر التنور والرقي . فان البلاغة الحقيقية تقتضي ترويض القريحة (génie) وتثقيف العقل . فهي تختلف عن ذرابة اللسان التي يحوزها كل من كان شديد الاحساس سريع التصور تسعفهُ اعضاء النطق على حسن الالقاء فمن كان هذا شأنهُ كان انفعالهُ سريعاً حسب سرعة تصورهِ وكان من ثم ابرازهُ صورة هذا الانفعال الى الخارج سريعاً ايضاً فاذا اثَّر في سامعيهِ لم يكن تأثيرهُ الاَّ من قبيل تأثير الاعضاء على الاعضاء اي تأثير المادة على المادة . واما التأثير على من خرجوا عن سواد العامة واريد بهم النخبة الصغيرة من المستنيرين المتعلمين نظيركم يا سادتي فلا يتأتى من وراء ذرابة اللسان ورشاقة الحركات والاشارات وطنطنة الالفاظ ورخامة الصوت او جهورهِ بل يقتضي من طالبهِ ان يشرب كلامهُ الى مكامن العقل الخفية فيكون ملءَ القلب والنفس قبل ان يكون ملءَ العين والاذن

ليس انشاء المرء سوى كينية تنسيقهِ لافكارهِ وتحريكهِ اياها فاذا احسن وصلها وجمعها جاء انشاؤهُ متيناً واضحاً خلاباً . واذا اغفل ذلك لكي يوسع مجالاً لتنميق اللفظ جاء انشاؤهُ مضطرباً ركيكاً يبعث على السآمة ولو كان اللفظ غايةً في الرواء والفصاحة

ويجب على الكاتب قبل كل شيء ان ينتبه الى الافكار الاصلية الاساسية التي

تجول في خاطره بشأن الموضوع المقصدي له وان يطيل فيها نظره لكي يتمكن من جعل فاصل بين كل فكرين منها فيكون تأمن من خلط بعضها ببعض. وان يلتفت بعد ذلك الى الافكار الفرعية التي لا بدّ من نشوئها عن تلك الافكار الاصلية فيميز بين نتيجها وسببها فيثبت هذا وينبذ ذاك . فاذا اوفى حق ذلك كلّهُ انفتح امامهُ كل مغلق وسهل عليهِ كل وعر والتي اليهِ حسن التعبير ازمتهُ . وليعلم ان العقل قلما يستطيع تناول الموضوع من اقصاهُ الى اقصاهُ دفعة واحدة فلا يقسرهُ على ذلك لئلاَّ يرهق فيكل لا سيما اذا كان الموضوع واسعاً متشعباً بل عليهِ ان يسير بعقلهِ متشدّاً مترفقاً . وليعلم ايضاً ان من القليل النادر امكان استيعاب علاقات الموضوع وملابساتهِ باسرها فلا يبالغ في استقصائها حين يرى هذا الاستقصاء شديد التعسر او قليل الجدوى بل يكتفي بالاهم الافضل

على ان كل ما ذكرناهُ ليس هو الانشاء بذاتهِ بل محورهُ واساسهُ . فهو يقيم عمودهُ ويمهد سبيلهُ ويسدد سيرهُ ويضبطهُ في نظام امين . فاذا لم يراعِ الكاتب قادّ في مهامه مترامية الاطراف مهما بلغ من اقتدارهِ وكان بقلمهِ كخاطب الليل يتجلجل وتتناثر اجزاء كلامهِ ولو جاء بالف حسنة من زخرف الظاهر وروائع الامثال والشواهد والمقارنات . حتى اذا قرأ قارئٌ خبير ما كتب علم من زخارفهِ ومحسناتهِ ان فريحتهُ لا تخلو من قوة وفيض . وادرك من اغفالهِ شروط الاساس انهُ ليس بالمشيء النحل

وبناء على ما ذكر كانت كتابة الذين يكتبون حسبما يتكلمون كتابةً رديئة ولو عُولوا بحسن الكلام وكان الذين يغترون بالشرارة الاولى من فكر تصورهم فيسيرون على ضوئها في انشائهم غير متمهلين يصابون بالعجز سريعاً عن تتبع الطريق الى آخره . لان نزعة هؤلاء واولئك لم يمكنهم من تسيق ما ينوون فكانوا كالجندي بغير سلاح او المسافر بغير زاد

ثم ان العقل لا يستطيع ابتداع شيء ابتداعاً محضاً . واما ما يبدو منهُ من الهجمات المطربات ونسميهِ على سبيل التسامح ابتداعاً وابتكاراً فما هو الاَّ مكتسب في اجزائهِ من اختبارات صاحبهِ وتأملاتهِ . فاذا حدا العقل حدو الغريزة بان يرتقي في التأمل الى اسمى الحقائق فيجمعها ويضبطها ثم يبني عليها ما يريد ابرازهُ بلسان القلم جاء اساسهُ مكيناً وبناؤهُ خالداً

ومما يقع كثيراً ان يتبرى المرء وهو ذو علم وذكاء ليحث ما فلا يكاد يلمّ بهِ حتى تتزاحم عليهِ الافكار المختلفة والآراء المتباينة فيقف بينها احير من ضب لا يدري من اين يأخذ ولا الى اين ينتهي . وربما مرَّت بهِ الساعة الثر الساعة وهو على هذه الحال حتى تزهق روحهُ

ويهم به اليأس . ذلك لانهُ لم يجمع تلك الافكار في ذهنهِ ويوازن بينها ويرتبها ترتيباً يسيراً بل اقتصر على الالتفات اليها لفتة سجيب بكثرتها مرتاع لاشتباكها . فلم يتيسر لهُ التمييز بين الفاضل والمفضول منها والراجح والمرجوح بحيث ينفتح لهُ باب يدخل منهُ وطريق يسير فيهِ . واما اذا جمع في ذهنهِ الافكار الرئيسية المطلوبة لبحثهِ واحسن تنسيقها لم يلبث ان يراها اصبحت طوع يديهِ بعد ما كان اسيرها فيقبض على القلم في اوانهِ ويشعر انهُ ساعٍ لاجتناء ثمر ناضج . ومن ثم تظهر لهُ الكتابة وسيلة لذة وارتياح وتشال عليهِ الافكار سراعاً تباعاً على غير اختلاط ولا اضطراب وتكسبهُ اللذة التي يجدها في سهولة العمل حماسة ونشاطاً فتأتي معانيهِ بفضل هذين كالبحر انسطراماً . وتأتي الفاظهُ بفضل تلك كالماء انسجاماً

ولكن الحذر الحذر من تجميل الكلام ما لا يطيقهُ من ضروب التحذلق كأن يعمد الكاتب الى تزيين كل جملة من جملهِ بحلية بارزة فان ذلك غير متيسر الاَّ عن طريق التكلف الفاضح واقل ما ينشأ عنهُ عيب المماظلة اي تراكب المعاني وتداخلها في السير من الالفاظ فيتعب ذهن السامع والقارىء تعباً يشهد على ان الكلام خرج عن حدود البلاغة الى نقيضها . والحذر كل الحذر من شدة التعويل على المحسنات اللفظية وشدة الثقة بنفعها فان جمالها مستعار ليس لهُ قوام بذاتهِ لانهُ حاصل من تجانس تلك الكلمات او تضادها او ما اشبه ذلك فهو الى الوهم اقرب منهُ الى الحقيقة وما مثلهُ في الدهشة القصيرة التي يثيرها عند ظهورهِ الاَّ كمثل الشرر لا يكاد يسطع حتى يتبدد وتخيم مكانهُ وحشة الظلام

ومما ينافي البلاغة الحقيقية ايضاً الالتجاء الى المعاني التافهة التي لا طائل تحتها وقد يغتر البعض بها فيحسبون فحمها وشاقة ومختها دقة . وانما هي في خفتها التي يستعذبها هذا البعض مثل رقائق المعدن لم يكسبها الطرق ذلك البريق اليسير الاَّ بعد ما انتزع منها المتانة والشدة . وعلى مقدار ما يدس الكاتب من هذه المعاني تفقد كتابتهُ نصيباً من الفخامة والاشراق والاحتدام . وانما يجوز استخدامها اذا كانت هي موضوع ما يكتب او اذا كان المقام مقام هزل ومداعبة فان التطرف بها حينئذٍ قد يكون ادل على الاقتدار من الالتجاء الى سواها

ومما يجفي على الانشاء جنايةً لا تقتفر التعبير عن الاشياء المعتادة والاشياء العامة بأساليب وعرة او فخمة . فالكاتب الذي هذا شأنهُ لا يعجب بهِ الناس كما يتوقع بل يرثون لهُ لانهُ اضاع وقتاً طويلاً وكابد عناء جزيلاً في رص الكلام ولم يأتِ بشيء جديد بل قال ما يقولهُ كل واحد سواهُ . وهذا العيب فاشٍ في اصحاب العقول العقيمة الناثلين حظاً من

الدرس والمطالعة . فهم اغنياء الفاظ فقراء معانٍ يدورون حول الكلام ويزوقون جمله حاسبين انهم جاؤا بالافكار وانهم طهروا اللغة وشرفوها وانصحيح انهم افسدوها وانشاؤهم لا يعد انشاء لان الانشاء ينقش على الذهن فكراً وهم يرسمون على الورق لفظاً

واذا اضاف الكاتب الى مراعاة ما تقدَّم ذكرهُ من القوانين والملاحظات مراعاة حسن الاختيار في المفردات واستعمال المألوف المشهور من التراكيب على شرط ان يكون فصيحاً واجتناب مواضع الالتباس وبوادر الجنون حاز في صناعته مقاماً رفيعاً

وجل ما يقال في حسن الانشاء انهُ يدل على سعة الفكر ودقة الشعور وسلامة الذوق معاً وانهُ يثير جميع القوى العقلية ويرقيها . والانتصار للحق في الانشاء هوامش جماله فليس سوى الحق يثبت على محك النقد وليس سوى الحق يخلد ذكرهُ . وكلما اتسع حظ الكتابة من ذكر حقائق الاشياء اتسع حظها من الجمال واما التلفيق والتزويق المحضان اللذان لا يقصد منهما خدمة حقيقة تستشعر من خلالها فرتبتهما في الاقوال ساقطة مثل رتبتهما في الاعمال

ولا يحصل سمو الانشاء الاَّ في المواضيع السامية واكبر ميادينهِ الشعر والفلسفة والتاريخ فالشعر يصف الطبيعة ويزينها ويصف البشر ويجسمهم وينتزع منهما ابطالاً واشباه آلهة . والفلسفة تتناول الطبيعة فترسمها وتستطلع نواميسها وغوامضها . والتاريخ يصف البشر وحدهم وهو لا يحتمل تجسيماً ولا مبالغة بل يذكر كل شيء كما هو ولذلك لا ينتظر من المؤرخ ان يبدع في انشائهِ ويوصلهُ الى مرتبة السمو الاَّ عند ذكر افراد العظماء من الناس وحوادث الكون النادرة فاذا خرج عن هذا الشرط كان متكلفاً غير محمود . فشأنهُ في ذلك غير شأن الشاعر والخطيب اللذين يطالبان بافراغ كل ما ينشئان في قالب الرونق والفخامة وتزيينهِ باحسن طرق الترغيب والترهيب او الاستعطاف او التحريض لان مواضيع صناعتهما لا تكاد تخرج عمَّا ذكر فيجب فيها ايجاد نسبة بين المطلوب وصيغة الطلب

ادوار مرقص